

تاريخ الإرسال: 2024/03/04 تاريخ القبول: 2025/02/02
تاريخ النشر: 2025/04/30

**دور ركب الحج المغربي في تفعيل التواصل الصوفي بين الجزائر
والمغرب الأقصى خلال عهد الدايات (1671-1830م)**

**The role of the Moroccan pilgrimage caravan in
activating the Sufi communication between Algeria
and Al-Aqsa Morocco during the Era of Daiyat
(1671-1830 AD)**

محمد الصالح طيباوي¹، صالح بوسليم²

جامعة غرداية (الجزائر)، salahtaibaoui83@gmail.com¹

جامعة غرداية (الجزائر)، salah_ghar@Hotmail.fr²

الملخص:

تسعى هذه الورقة البحثية إلى إبراز دور ركب الحج المغربي في تفعيل التواصل الصوفي بين الجزائر والمغرب الأقصى خلال عهد دايات الجزائر (1671-1830م)، ومن عاصرهم من سلاطين المغرب العلويين، إذ ساهم ركب الحج المغربي مساهمة فعالة في استمرار وتنشيط التواصل الصوفي بين الجزائر والمغرب الأقصى خلال هذه الفترة، فكان معبراً للأفكار، وأداة للتبادل الصوفي الروحي، ومجالاً لمجالسة الشيوخ والمريدين، ولقاء الأصحاب والأتباع، للإفادة والاستفادة. وبالرغم من الخلافات السياسية بين حكام البلدين إلا أن ذلك لم يؤثر على انتظام ركب الحج المغربي إلى البقاع المقدسة عبر الجزائر، مما ساعد في نقل مبادئ

الطرق الصوفية، ونشرها على امتداد طريق هذا الركب، مما ساهم وبشكل كبير في خلق شبكات تواصل سنوية بين الشيوخ والأتباع، والتي كانت كفيلة برفع الحواجز الجغرافية، والحدود السياسية بين البلدين.

الكلمات المفتاحية: ركب الحج المغربي، التواصل الصوفي، الجزائر، المغرب الأقصى، عهد الدايات.

Abstract:

This research paper seeks to highlight the role of the Moroccan pilgrimage caravan in activating the Sufi communication Between Algeria and Morocco during the Era of Daiyat Algeria (1671-1830 AD), And from their contemporary from the Sultans of the Alawites Morocco, The Moroccan pilgrimage caravan made an effective contribution to the continuation and revitalization of Sufi communication between Algeria and Morocco during this period, It was a crossing for people and ideas, and a tool for mystical and spiritual exchange, and room for badysitting elders and followers, and meeting friends and folliwers, to benefit.

Despite the political differences between the rulers of the two countries, This did not effect the regularity of the Moroccan pilgrimage caravan to the Holy spots via Algeria, Which helped transfer the principles of the Sufi orders, Which contributed significantly to the creation of annual communication networks between Sheikhs and follower, Which was sufficient remove geographical barriers and political borders between the countrie.

Keywords: Moroccan pilgrimage caravan, Sufi communication, Algeria, Morocco, Daiyat era

المؤلف المرسل: محمد الصالح طيباوي، SALAHTAIBAOU183@GMAIL.COM

مقدمة:

يعتبر الحج دافعاً قوياً لقيام المغاربة بالرحلة إلى البقاع المقدسة لأداء هذا الركن مروراً ببلاد الجزائر، إذ يتيح ركب الحج المغربي فرص اللقاء بين الجزائريين والمغاربة بما في ذلك متصوفة البلدين، والاحتكاك بينهم، وتلاقح أفكارهم، والتداول في المسائل الدينية والصوفية المطروحة، وتبادل الإجازات والأسانيد والمؤلفات الصوفية وتداولها، وإنشاء الصداقات بينهم، فركب الحج المغربي لعب دوراً هاماً كعنصر من عناصر التلاحم الداخلي، وكعامل من عوامل التقارب بين الجزائر والمغرب الأقصى على مر العصور، كما يعتبر هذا الركب رافداً من رافد التواصل الصوفي بين ساكنة البلدين لاسيما في طابعه الشعبي الذي كان من تنظيم شيوخ الزوايا والطرق الصوفية خاصة في الفترة محل الدراسة.

وتتركز إشكالية هذا المقال بالأساس فيما يلي: إلى أي مدى ساهم ركب الحج المغربي في تفعيل التواصل الصوفي بين الجزائر والمغرب الأقصى خلال عهد دايات الجزائر ومن عاصرهم من سلاطين المغرب العلويين؟

وقد قادنا هذا الإشكال إلى طرح بعض التساؤلات نوجزها فيما يلي: ما طبيعة ركب الحج المغربي؟ وما هي أبرز محطاته في الجزائر؟ وهل لعب ركب الحج المغربي دوراً في تعزيز التواصل الصوفي بين البلدين؟ وما هي أبرز مظاهر تأثير ركب الحج المغربي في التواصل الصوفي بين الجزائر والمغرب الأقصى في هذه الفترة؟

1. طبيعة ركب الحج المغربي:

ركب الحج المغربي هو عبارة عن مدينة متقلة بنظام، يشرف على سيرها وراحتها وأمنها أمير الركب وبجانبه الإمام والقاضي، وكانت وسيلة تنقلهم الإبل¹، والركب صورة عن مجتمع متنقل متكون من مختلف المناطق المغربية، ويشمل جميع شرائح المجتمع من فقهاء وعلماء، ومتصوفة، وعامة الناس²، ويتحرك في مجال جغرافي كبير ما يتيح لأفراده خلق علاقات اجتماعية، وروحية عديدة، فالركب لا يسير في

أيام، وإنما سفره يطول؛ قد يصل لشهور أو أكثر، هذا ما دفع شيوخ التصوف، والأتباع إلى استغلال فترات الراحة بمحطات الطريق في التنقل للقاء الشيوخ والمريدين، وزيارة الأولياء والصلحاء، والزوايا³.

يرجع تأسيس الركب المغربي إلى أواسط العهد الموحدي، وذلك بمبادرة من بعض الصلحاء⁴، إذ أسس الإمام أبي محمد صالح الماجري أول ركب للحجاج بالمغرب⁵ وسمي بالركب الصالحي، وكان هذا الركب يسلك طريق أسفي الحجاز⁶، وقد ساهم هذا الركب في تشجيع الكثيرين على الحج، زيادة على اعتناء المخزن بركب الحج خاصة أيام العلويين، ما أكسبه طابعاً رسمياً لأجل حمايته، ناهيك عن المكانة التي كان الركب يحظى بها لدى الزوايا وعامة الناس⁷، فأصبح لكل جهة ركبها، ما أدى إلى زيادة عدد أركاب الحج المغربية في هذه الفترة إلى خمسة؛ وهي:

1.1 الركب الفاسي:

يخرج الركب الفاسي من مدينة فاس، ويرجع عهد تأسيسه إلى أوائل الدولة المرينية، ويعتبر الركب الفاسي الركب الرسمي للدولة العلوية⁸، إذ اهتم المغاربة بهذا الركب اهتماماً كبيراً حكومة وشعباً، فكانوا يعينونه بالإعانات المادية الوفيرة، حيث قام السلطان الرشيد بحفر آبار على امتداد طريق هذا الركب ذهاباً وإياباً⁹، كما أنفق الأمير إبراهيم بن السلطان سليمان لما حج عام (1226هـ/1811م) أموالاً طائلة على فقراء الحجاج¹⁰، وكان أمير هذا الركب يختاره السلطان من أكابر الناس وعلية القوم¹¹.

وقد ظل الركب الفاسي باستمرار أهم الوفود الحجية المغربية، حتى أن تسميته كانت ترادف مجموع الحجاج المغاربة بمصر، فيقال الركب الفاسي أو الركب المغربي، ذلك أن حجم هذا الركب كان يفوق الركبان الأخرى لأنه فضلاً على حجاج الشمال كان يستقطب جموعاً من حجاج الجنوب¹²، وكان خروج الركب الفاسي يتم

في أواخر شهر جمادى الثانية بحيث يستهل عليه رجب بمنطقة " تازا " أو بعدها¹³، ومما زاد في أهمية هذا الركب أنه ترك لنا تراثاً ثقافياً وتاريخياً، وحتى صوفياً خاصة عند مروره بالواحات الجزائرية.

2.1 الركب السجلماسي:

يخرج الركب السجلماسي من مدينة سجلماسة، ويذهب فيه أهل تافيلالت وأهل درعة، ومن أنصاف إليهم، وكان أمير هذا الركب يُختار من أهل الركب¹⁴، يستغرق هذا الركب في سفره نحو ستة أشهر أو تزيد ذهاباً من سجلماسة بالجنوب الشرقي المغربي، ثم يستغرق مثل هذه المدة عودة إليها¹⁵، وكثيراً ما يلتقي الركب السجلماسي في طريقه بالركب الفاسي، وقد يتحدان تحت رئاسة أمير الركب الفاسي كما حدث في ركب عام 1121هـ/1709م، وقد يجتمع الركبان ويبقى كل أمير على رئاسته؛ مثل ما وقع في ركب عام 1101هـ/1689م¹⁶.

وفي سنوات مختلفة انضم إلى الركب السجلماسي عدد كبير من رجال العلم والتصوف، منهم من دون رحلته وأشار إلى انضمامه إلى الركب السجلماسي، ومنهم من نوه بهذا الركب، ومن بين هؤلاء الشيخ أبو سالم عبد الله بن محمد العياشي (ت1090هـ/1679م)، والشيخ أحمد بن محمد بن ناصر الدرعي (ت1128هـ/1715م)، والشيخ أبو العباس أحمد بن عبد العزيز الهلالي (ت1175هـ/1761م)، والشيخ محمد بن أحمد بن عبد الله الحضيكي (ت1189هـ/1775م)، والشيخ أبو عبد الله محمد بن عبد السلام الناصري (ت1239هـ/1823م)، وكل الذين التحقوا بالركب السجلماسي أشادوا بنظامه وانضباطه، كما أشادوا بمسيره وممراته¹⁷.

3.1 الركب المراكشي:

يعتبر الركب المراكشي ركب الدولة السعودية الرسمي، كان ينطلق من مراكش، ويذهب فيه أهل المدينة ونواحيها، والغالب أنه تأسس مع دولة السعديين،

وانتهى بانتهاء دولتهم، وكان السعديون يعتنون بهذا الركب ويوصون به ملوك الحرمين الشريفين، وكان أمير هذا الركب يحمل الصرة وبعض الهدايا المتنوعة التي ترسل إلى المسجدين الشريفين وللأشراف وغيرهم¹⁸، وقد وصف أبي سالم العياشي هذا الركب بأنه ليس بالقوي¹⁹.

4.1 الركب الشنقيطي:

تأسس الركب الشنقيطي بعد عمارة مدينة شنقيط، وكان يضم كل من أراد الحج من سائر بلاد شنقيط²⁰، كان هذا الركب يسلك الطريق من قرية المبروك إلى توات، ثم صحراء تنزرفت، ثم عين صالح، ثم فزان فمصر إلى الحجاز، وتعتبر رحلة الحاج البشير البرتلي عام 1789م؛ أقدم رحلة حجازية مدونة خرجت من بلاد شنقيط²¹.

5.1 الركب البحري:

لم يقتصر ركب الحج المغربي على البر فقط، بل أخذ حظه من البحر كذلك، ويقصد بالركب البحري جماعات الحجاج التي تسافر عبر البحر، ومن أمثلة هذا الركب الذي سافر فيه الشيخ محمد بن علي الرافي التطواني عام 1096هـ/1685م، والذي أبحر من مرسى تطوان قاصدا الديار المقدسة²²، وقد ذكر الرفاعي التطواني مساره البحري، وقدم وصفاً للمدن الساحلية الجزائرية؛ خاصة مدينة الجزائر²³، ومن أيام السلطان عبد الرحمان بن هشام كثر الحج على البحر ذهاباً وإياباً²⁴، وقد أصبح الركب البحري بعد مرور الزمن ركب المغرب الرسمي، إذ نسخ هذا الركب سائر أركاب المغرب الأخرى، وحل محلها، وذلك لأنه أصبح أقل مشقة وأكثر أمناً وأقصر مدة زمنية من ذلك البري العتيق²⁵.

2. محطات ركب الحج المغربي في الجزائر

تنوعت مسالك وطرق ركب الحج المغربي باتجاه البقاع المقدسة مروراً بالجزائر، وتباينت مساراتها نظراً لتباين الجهات التي كان ينطلق منها هذا الركب، واختلفت من

عصر إلى آخر، فخلال الفترة محل الدراسة كانت أغلب أركاب الحج المغربية تتم عن طريق البر عبر المناطق الجنوبية للجزائر بفعل تحسن الأوضاع الأمنية، وانتعاش الحركة التجارية، وتعدد التجمعات البشرية في تلك المناطق الصحراوية²⁶.

إذ يعتبر الطريق الأوسط الذي يمر بشمال الصحراء الجزائرية من أفضل الطرق لأركاب الحج المغربية، والذي يبدأ من سجلماسة بالمغرب مروراً بالمناطق الجزائرية: العوينة (القنادسة)، فقيق، بوسمغون، الغسول، عين ماضي، تاجموت، الأغواط، برج الغيران، سيدي خالد، بسكرة، سيدي عقبة، توزر²⁷.

إذ وصف العياشي في رحلته الحجازية هذا الطريق؛ والذي سلكه الركب السجلماسي داخل المجال الجزائري بقوله: "... فإذا خرجتم من سجلماسة، فأول ما يلقاكم...ثم وادي قير، ثم قرية العوينة، ثم بشار...ثم أم إلياس، قرب فجيح...فإذا بلغت فجيح فليكن نزولك عند سيدي أحمد بن أبي بكر...واشتري من فجيح ما تحتاج إليه إلى بوسمغون...فمن بوسمغون نصف يوم للغاسول...وانحدرتم إلى وادي المخيلي... ومنه إلى شعبة الملح، ومنه إلى عين ماضي... ومن هناك لقرية تاجموت، ومنها إلى الأغواط... فتصلون لبلدة نبي الله خالد بن سنان العبسي...وقرب سيدي خالد دشر أولاد جلال، ومن هناك العمران إلى بسكرة مسافة يومين أو ثلاثة... ومن بسكرة إلى سيدي عقبة بن نافع...ومن هناك مسافة نصف يوم للزرايب،.... وبالقرب من الحامة جوار مدينة توزر"²⁸.

كما كانت بعض أركاب الحج المغربي تسلك الطريق الصحراوي الجنوبي، وبالرغم من صعوبته بالنسبة للحجاج المغاربة نظراً لتباعد المسافات بين محطاته إلى جانب صعوبة تضاريسه، إلا أن أهميته تكمن في أمنه، وحركية نشاطه الاقتصادي²⁹، ومسار هذا الطريق ينقسم إلى فرعين؛ طريق علوي وآخر سفلي، وقد وصف العياشي الطريق العلوي في رحلته الحجازية بقوله: "... ومررنا ضحى بقرية

يقال لها أجلي، وهي أول قرى وادي الساورة... ثم ارتحلنا منها ونزلنا قرى بني عباس... ومر بعض الركب على قرى يقال لها القصبات، وذهبنا في الحماد الذي بين توات ونزلنا بموضع يقال له الدميننة... ثم ارتحلنا إلى أول عمالة توات وهي قرى تسابت... ثم ارتحلنا من توات... وعدلنا ذات اليسار إلى بلاد أوكرت، ونزلنا بقرى الدغامشة، قرب زاوية سيدي عبد الله... وكان رحيلنا من هذه البلاد... قاصدين واركلا... وأخذنا على طريق وادي ايمكين... إلى أن نزلنا على قرية يقال لها والآ، ثم ارتحلنا... فدخلنا واركلا... ثم ارتحلنا من واركلا ونزلنا ببلدة قريبة منها تسمى مكوسا... ثم ارتحلنا قاصدين وادي ريغ... ورحنا إلى بلد تماسين... ثم ارتحلنا منها ونزلنا تكرت، وهي قاعدة وادي ريغ، وسرنا قاصدين سوبا، وقطعنا تلك الرمال وصلنا فيه إلى سوف... ثم ارتحلنا ونزلنا على ماء يقال له الرياح... ثم نزلنا بموضع يقال له العلندة... ثم ارتحلنا وبتنا على حد السبخة التي هي على حد قرى نفزاوة³⁰.

أما الطريق الصحراوي السفلي فيمر عبر توات، وقد وصفه ابن مليح في طريقه للحج بأنه يأخذ طريق الدغامشة، ثم بلاد اقسطن، أقروت، ثم صحراء اذكر³¹، كما كان الركب الشنقيطي يسلك مسار هذا الطريق، إذ وصف الحاج البشير البرتلي بعض محطاته؛ فذكر أن الركب انطلق من ولاته يوم 25 صفر 1204هـ/1785م، إلى تمبكتو في مالي، ليتجه شمالاً إلى توات، التي تعد محطة هامة للركب الشنقيطي من أجل الالتقاء مع الركب التواتي والمغربي لمواصلة المسير عن طريق تيدكلت إلى فزان في ليبيا³².

من خلال محطات أركاب الحج المغربية داخل المجال الجغرافي الجزائري نلاحظ تجنب الحاج المغربي اجتياز المناطق الشمالية للجزائر، وهذا في اعتقادنا ما عرفته هذه المناطق من فتن واضطرابات خلال هذه الفترة، كما أن اختيار مناطق صحراء الجزائر الجنوبية كان بغية تفادي سلطة الحكام العثمانيين، مما أعطى أهمية

للقرى والمدن الواقعة في طريق هذه الأركاب، وذلك من خلال تفعيل حركة التبادل والتفاعل الثقافي والصوفي وحتى التجاري بين الجزائر والمغرب الأقصى.

وقد اهتم المتصوفة والعلماء من حجاج الركب المغربي بتدوين أخبار حجاتهم، وسرد وقائعها، وتسجيل ملاحظاتهم في مؤلفات تعرف بالرحلات الحجية أو الحجازية، والتي كانت تحتوي على المسالك والمحطات التي مر بها أصحابها، والعلماء والصالحين الذين التقى بهم، أو زار أضرحتهم أو زواياهم³³، فمنهم من أدرجها ضمن كتب المسالك، ومنهم من أفردها بكتاب مستقل، ومنهم من كتبها نثراً، في حين دونها بعضهم نظماً أو شعراً³⁴، وهكذا جاءت الرحلات الحجازية المغربية في العصر العلوي، ولا سيما في القرنين السابع عشر والثامن عشر ميلاديين حافلة بالمعلومات المتعلقة بالطرق وأحوالها³⁵.

3. مظاهر تأثير ركب الحج المغربي في التواصل الصوفي بين الجزائر والمغرب

لعب ركب الحج المغربي دوراً بارزاً في نقل مبادئ الطرق الصوفية، وخاصة المغربية منها، ونشرها، وقد استفادت منه جميع الطرق الصوفية؛ التي استطاعت أن تنتشر على امتداد طريق هذا الركب، وفي أغلب المناطق الجزائرية التي يمر عليها، مما ساهم في تفعيل وتنشيط التواصل الصوفي بين الجزائر والمغرب الأقصى خلال هذه الفترة، وما يغذي هذا التواصل وجود كثافة عددية من الزوايا والمريدين، والشيوخ على امتداد طريق هذا الركب³⁶.

وتأكيداً على الحضور الصوفي في ركب الحج المغربي، ما ورد في كتب الرحلات الحجازية كرحلتي العياشي، والناصري، وغيرهما، حول زيارة الزوايا، وشيوخ التصوف، وأضرحة الأولياء، وتعيين المقدمين، وأخذ الأسانيد والإجازات، مما يدل على المكانة التي يوليها الحاج المغربي للمقامات والمزارات الدينية بالجزائر.

ويمكن أن نلخص أبرز مظاهر تأثير ركب الحج المغربي في التواصل الصوفي بين الجزائر والمغرب الأقصى في هذه الفترة؛ فيما يلي:

1.3. نشر مبادئ التصوف وتعيين المتقدمين وتلقين الأوراد:

ساهم ركب الحج المغربي في انتشار الطرق الصوفية ومبادئها على طول طريق هذا الركب، إذ حرص المتصوفة من هذا الركب على نشر طرقهم الصوفية، وتعيين مقدمين لهم في المناطق الواقعة على طريق الركب أو القريبة منه، وفي هذا الشأن أورد الشيخ أحمد بن محمد بن ناصر الدرعي في حجته سنة 1684م، أنه عين مقدمين للطريقة الناصرية ببعض المدن الجزائرية؛ إذ يقول: "...وبلغنا بشار قبل العصر،...ودفعنا لأخينا مقدما ومحبا سيدي عمرو بن عبد القادر منشورا يتضمن إذننا له في تلقين الأوراد نيابة عنا، أعانه الله على القيام بمقتضاه آمين، وودعناه، الله ورددناه، ليعجل إدخال السرور عليهم..."³⁷.

كما أشار الشيخ ابن ناصر الدرعي للذين أذن لهم في تلقين الأوراد في رحلته الحجازية هذه، وذلك بقوله: وبيان من أذننا له في سفرتنا هذه سيدي...، وسيدي عبد الله بن سحنون من أهل غريس من أحواز تلمسان، وابنه بعده سيدي الهاشمي... وأسأل الله تعالى أن ينفع الجميع وينفع بهم ويؤيدهم بمنه وكرمه آمين"³⁸.

وقد كانت محطات نزول ركب الحج المغربي بالجزائر تعطي فرصة لأفراد الركب أو المقيمين بتلك المناطق لأخذ أوراد وأذكار الطرق الصوفية المختلفة، ومناسبة جيدة يتطلع فيها المريدين للترقية إلى رتبة أعلى، فالشيخ ابن أبي زيان القندوسي (ت1145هـ/1732م)، لقن الأوراد للعديد من المريدين من الحجاج أثناء مرور الركب على زاويته، إذ انكبت عليه الناس لتفوقه وشدة رغبتهم في الانخراط في سلك مشيخته³⁹.

كما أشار الشيخ العربي الدرقاوي الذي حج مرتين إلى مدى انتشار طريقته عبر طريق ركب الحج من المغرب حتى الحرمين الشريفين، بقوله: " لا زال الفقير يمشي من هنا إلى بلاد المشرق وهو يببب عند إخوانه في الله حتى يصل إلى الحرمين الشريفين، فيجد إخوانه أيضًا " ⁴⁰.

2.3. تبادل الإجازات والأسانيد الصوفية:

لقد كان البحث عن الإجازات والأسانيد من أهم الأمور التي تجلت في سيرة العلماء والمتصوفة في هذه الفترة، وقد أضى ركب الحج المغربي مناسبة جيدة، وفرصة سانحة لشيوخ التصوف والأتباع إلى أن يقضوا في محطات طريق الركب فترات في التنقل لأخذ الإجازة عن مشايخها، أو منحها لمن يطلبها، ونجد هذا في قول الشيخ ابن ناصر الدرعي شيخ الزاوية الناصرية أثناء رحلته إلى الحج: "...وطلب مني بعض من حضر أوطاننا أخذ ذلك إجازة فيه، فصافحتهم وأجزتهم، فالله ينفع جميعنا ويجعلنا من أهل الإيقان" ⁴¹.

كما يذكر الشيخ أبي سالم العياشي أنه التقى بالشيخ أبو مهدي عيسى الثعالبي الجزائري في طريقه للحج، وسمع منه بعض المرويات، وأجازه في جميع مروياته بإسنادها إلى جميع أشياخه، وقد صافحه وشابكه، وأضافه بالأسودين التمر والماء وناولته السبحة، وألبسه الخرقة ⁴²، إذ يقول: "...فيما قرأت عليه بعضه، وأجازنيه وأذن لي فيه وناولنيه" ⁴³، كما أورد الشيخ أبي عبد الله محمد بن عبد السلام الناصري أنه في رحلته للحج زار الشيخ إسماعيل بن عبد الرحمان الفكيكي الأغواطي في بيته وأجازه إجازة عامة حسبما أجازه شيوخه وذلك سنة 1782م ⁴⁴.

وكان سكان المناطق التي يمر عليها ركب الحج المغربي يترصدون مجيء الركب آملين في لقاء الشيوخ والعلماء لأخذ الإجازة، وهذا ما حصل مع الشيخ بن يوسف التتلاي الذي لقي الشيخ محمد بن عبد الله الدرعي الذي كان في طريقه للحج فأجازه

في العديد من المصنفات، كما تحصل التتالي على إجازة كل من الشيخ محمد بن الغماري، والشيخ عبد العزيز الهلالي السجلماسي؛ اللذان كانا في طريقهما للحج⁴⁵.

3.3. لقاء المريدين والأتباع بشيوخ الزوايا والطرق الصوفية:

يمثل ركب الحج المغربي مناسبة سنوية لمريدي الطرق الصوفية في كل من الجزائر والمغرب الأقصى للالتقاء مع شيوخهم والاستفادة منهم، ومن الأمثلة على ذلك لقاء مريدي الطريقة الناصرية من الجزائر مع شيخهم أحمد بن محمد بن ناصر الدرعي الذي كان في طريقه للحج عام 1710م، إذ يشير الشيخ ابن ناصر إلى ذلك بقوله: "...والتقانا أولاد سيدي المنصور: سيدي محمد بن أبي نوة، وإخوانه،... وذكر سيدي أحمد بن أبي نوة أن والده من أصحاب الشيخ، وأنه وجد لصحبة الشيخ بركة تامة..."⁴⁶، كما يذكر ابن ناصر أن الركب الذي كان ضمنه؛ نزل بمنطقة عين مصباح، والتقى الحجاج بأولاد سيدي محمد بن عيسى؛ سيدي عيسى وإخوانه، وذكر أنهم من أهل المحبة التامة، وبمنطقة الغاسول التقى حجاج الركب بالشيخ سيدي عبد الكريم التواتي⁴⁷.

ويضيف الشيخ ابن ناصر الدرعي أنه لما وصل الركب إلى عين ماضي زار مجموعة من الحجاج المغاربة كبير شيوخها؛ وهو سيدي أحمد بن الدهصاء، وأبنائه: سيدي عبد الرحمان، وسيدي محمد وسيدي زروق، ويذكر ابن ناصر كذلك أنه لما وصل الركب إلى الأغواط التقوا بأصحابهم؛ وهم سيدي محمد بن أحمد بن يحيى، وسيدي أحمد بن محمد بن أبي زيان، كما زاروا بعض الشيوخ أمثال: سيدي محمد بن كسمية، وسيدي محمد بن خليفة، وسيدي الحاج عبد الرحمان الفجيجي، وسيدي إسماعيل الغينماضي، وفي منطقة أولاد جلال زاروا سيوخا كسيدي محمد بن الحاج، وسيدي عبد الباقي، وسيدي محمد بن عيسى، وسيدي محمد السعيد⁴⁸.

وفي رحلة الشيخ أبو العباس الهلالي السجلماسي الذي خرج مع الركب السجلماسي عام 1737م، يذكر أن الركب نزل بزاوية القنادسة حيث زار الحاج المغاربة شيخها أبو عبد الله سيدي محمد بن محمد بن أبي زيان؛ والذي أُسندت إليه مهام تسيير شؤون الزاوية بعد وفاة والده عام 1732م، كما أشار أنه في منطقة فجيح النقي حاج هذا الركب بصاحب زاوية كرزاز سيدي محمد بن عبد الرحمان الذي كان في زيارة للمنطقة، كما زار الحاج المغاربة في منطقة بسكرة أحد صلحائها وهو الشيخ سيدي محمد بن المودع.⁴⁹

كما أورد الشيخ إدريس بن محمد بن المنجرة أنه في طريقه للحج سنة 1723م التقى بالشيخ محمد بن بوزيان شيخ الزاوية الزبانية بالقنادسة، وعن هذا اللقاء يقول الشيخ المنجرة: "... لقيته ببلده واستفدت منه، لقنني وواعدني وصرح لي بما أرجو الله في حصوله وأكثر⁵⁰، كما يشير الشيخ محمد بن عبد السلام الناصري في رحلته الحجازية أنه التقى بمنطقة بوسمغون الشيخ أحمد التجاني؛ وتبادل معه بعض المسائل الفقهية⁵¹.

4.3. تبادل المصنفات والمؤلفات الصوفية:

لقد اهتم أفراد ركب الحج المغربي خصوصاً العلماء ومشايخ الصوفية؛ في رحلتهم إلى البقاع المقدسة بشراء الكتب ونسخ ما لم تحزه أيديهم من المصنفات في مختلف العلوم، وخاصة التصوف، وفي هذا الصدد يذكر الشيخ ابن ناصر الدرعي وهو في طريقه للحج أنه كلف سيدي علي بن محمد بن أحمد الراشدي بنسخ كتاب "شرح دلائل الخيرات" وكتاب "تنبيه الأنام" لأحمد بن أبي بكر الشريف الفكوني الفجيجي بعد أن اشترى الورق من فجيح، حيث يقول: "... ووجدنا هنالك شرعي دلائل الخيرات وتنبيه الأنام للأخ سيدي أحمد بن أبي بكر الشريف الفكوني

الفجيجي، واشترت الكاغيد، ومكنته للأخ سيدي علي بن محمد بن أحمد الراشدي بنسخه وإلى من قبض الأجرة⁵².

كما أشار الشيخ ابن ناصر أن أهل مدينة عين ماضي طلبوا منه أثناء حجته عام 1684م، أن يترك لهم كتاب والده الموسوم: "غنيمة العبد المنيب في التوسل بالصلاة على النبي الحبيب"، بغرض نسخها، إذ يقول: "... وفي عام ستة وتسعين طلبوا منا أن نترك لهم نسخة الغنيمة لوالدنا، لينسخوها، فتركناها لنعم الفائدة...⁵³.

وقد أورد الشيخ أبو سالم العياشي في رحلته الحجازية أنه اطلع على بعض الكتب بمدينة ورقلة، وذلك بقوله: "... وأدخلني إلى منزله، وأحضر لي ما عنده من الكتب، فإذا عنده أجزاء من الموطأ، ومن البخاري، ومن الإكمال، وبعض شرائح المختصر والرسالة...⁵⁴، ويضيف العياشي أنه دخل خزانة كتب الأمير بورقلة، وذلك بقوله: "... فإذا عنده نحو أربعين سقراً من جملتها التوضيح والتتائي، وبهرام، وحواشي على الصغرى...⁵⁵، كما أشار العياشي أنه وجد بروضة سيدي محمد بن موسى بقرية "والآ" نسخاً من نوازل البرزلي بخط الإمام ابن مرزوق، وعلى إجازات لبعض السادات القادرية بخط مشرقي⁵⁶، ويضيف العياشي أنه لما وصل مدينة تقرت استعار كتب من أحد شيوخها، حيث يقول: "... وفي الغد من وصولنا إلى تكرت بعثت إلى سيدي أحمد أخ الأمير بأبيات أستعير منه الأبى واليعمري... وأخذ مني سيدي محمد بن إبراهيم الكراسية التي سميتها تنبيه ذوي الهمم العالية على الزهد في الدنيا الفانية، وأعطاني مجموعاً فيه عدة تأليف اغتبطت به كثيراً...⁵⁷.

وقد أشار الشيخ أبي العباس الهلالي السجلماسي في رحلته الحجازية عام 1737م، أنه زار مكتبة الزاوية الزيانية بالقنادسة، إذ يقول: "... وفي القنادسة... بالغ الشيخ أبو عبد الله سيدي محمد بن أبي زيان والعلامة أبو الحسن علي بن محمد بن

عبد الله الحاحي وأدخلاني خزانة الكتب فضلت بها وبت، ورأيت بها من الكتب جملة مرغوباً فيها منبئة باعتناء جامعها ومقتنيها⁵⁸.

كما ذكر الشيخ عبد الله بن محمد بن عبد السلام الناصري أثناء حجته عام 1796م، أنه وقف بقسنطينة عند الشيخ أبي الحسن علي الونيسي على كتابين من تأليف كمال الدين أبي الفضل جعفر بن تغلب الشافعي، الأول بعنوان " الطابع السعدي الجامع أسماء الفضلاء"، والكتاب الثاني بعنوان " الإمتاع بأحكام السماع"⁵⁹، ويشير الناصري كذلك أنه لما نزل بمدينة عين ماضي وجد بها بعض الكتب الفقهية المتداولة كمختصر خليل، والتقييد الكبير لأبي حسن الصغير على المدونة، وذكر أنها كانت في ستة أجزاء، بخلاف ما هو موجود في الزاوية الناصرية بالمغرب، والتي تملك سوى جزأين منه فقط⁶⁰.

5.3. زيارة الزوايا وأضرحة الأولياء للتبرك والدعاء:

كان تأثير التصوف جلياً على أطوار رحلة ركب الحج المغربي في هذه الفترة، فكان دأب الحجاج المغاربة زيارة الزوايا وأضرحة الأولياء في الذهاب والإياب، بقصد التبرك بأصحابها، وبما أن الجزائر كانت على طريق هذا الركب فقد كان الحجاج المغاربة يزورون من اشتهر بالصالح فيها، وذلك في أغلب المحطات التي يمرون عليها، وقد أشار الشيخ ابن ناصر الدرعي في رحلته الحجازية عام 1710م، زيارته لأضرحة الأولياء رفقة الحبيج، ومن بين المقامات التي زاروها خلوة أبي زيد سيدي عبد الرحمان الأخضر، وضريح سيدي عقبة، وضريح سيدي خالد⁶¹، هذا الأخير الذي قال عنه أبو سالم العياشي أنه من المزارات الشهيرة في الجزائر تقصده الأركاب للزيارة من نواحي إفريقيا كلها⁶².

وبحكم طغيان التوجه الصوفي في طريق ركب الحج المغربي، فإن الحجاج المغاربة كانوا يغتنمون فرصة دخول الجزائر لزيارة الصالحين فيها الأحياء منهم والأموات، بل

إن زيارتهم موسى بها للحاج قبل سفره، على ألا يخلف من جملتهم أحداً⁶³، حيث أشار الشيخ أبو الطيب الشرقي زيارته للمقامات في الجزائر رفقة الحجيج، وذلك أثناء رحلته الحجازية عام 1726م، فأورد أنه زار روضتي الشيخ محمد العمري الملقب بمولى الخلوة، وروضة الشيخ عبد الرزاق المجلد، وهما من صلحاء منطقة مشرية بنواحي البيض، وقد عبر الشيخ الشرقي حسرة الحاج لعدم تمكنهم من زيارة ضريح سيدي عقبة بقوله: "...وأخذنا نسأل تجاهه خيرات الدنيا والآخرة، ونبتهل إلى الله أن يفيض علينا بحار كرمه الزاهرة..."⁶⁴، ويضيف الشيخ الشرقي أنه في طريق العودة زار الركب ضريح سيدي عبد الرحمان الأخضر في بمنطقة أولاد جلال، حيث قابله الحاج المغاربة بنية الزيارة والتبرك.⁶⁵

وفي رحلة الشيخ أبي العباس الهلالي السجلماسي الحجازية؛ إشارات عديدة لزيارات الحاج المغاربة لمقامات الأولياء بالجزائر، حيث أورد أن حاج الركب المغربي لما نزلوا بمنطقة أولاد جلال زاروا ضريح سيدي عبد الرحمان الأخضر، وقد وصف الشيخ الهلالي هذه الزيارة بقوله: "...زرناه بالقلوب...تأتي الوصول إليه، وقبره مزار عظمة، كان الحاج قبل هذا يصلون إليه ويزورونه..."⁶⁶.

خاتمة: ومما تقدم يمكن القول:

- أن ركب الحج المغربي يعتبر من أهم العوامل المؤثرة في استمرار التواصل الصوفي بين الجزائر والمغرب الأقصى خلال عهد دايات الجزائر (1671-1830م)، ومن عاصريهم من سلاطين المغرب العلويين، وذلك من خلال خلق شبكات تواصل سنوية بين الشيوخ والأتباع، والتي كانت كفيلة برفع الحواجز الجغرافية، والحدود السياسية بين البلدين.

- أن ركب الحج المغربي ساهم في نشر مبادئ الطرق الصوفية، خاصة المغربية منها، وذلك عبر أغلب المناطق الجزائرية التي مر عليها، وقد استفادت منه جميع

الطرق الصوفية، مما أدى إلى تفعيل وتنشيط التواصل الصوفي بين الجزائر والمغرب الأقصى خلال هذه الفترة، خاصة مع وجود العديد من الزوايا والمريدين والشيخوخ على امتداد طريق هذا الركب.

- أنه من خلال الرحلات الحجازية المغربية كرحلة العياشي، والدرعي، والناصري، والشرقي، والهالي، وغيرهم، رصدنا الكثير من الإشارات الدالة على تأكيد الحضور الصوفي ضمن ركب الحج المغربي؛ كزيارة شيوخ الزوايا، وأهل الصلاح والبركة، للحصول على الأوراد، والأحزاب، والإجازات، وكذا زيارة مقامات الأولياء الأحياء منهم والأموات، للتبرك بهم، مما ساعد في مد جسور التواصل الصوفي والروحي بين الجزائر والمغرب الأقصى خلال هذه الفترة، وأسهم بشكل كبير في انتقال المعارف والأفكار والمؤلفات الصوفية، وتداولها، وزاد من الأخذ والعطاء بين ساكنة البلدين.

المراجع:

- ¹ مولاي بلحميسي، الجزائر من خلال رحلات المغاربة في العهد العثماني، ط2، الشركة الوطنية للنشر والتوزيع، الجزائر، 1981، ص 25 .
- ² محمد الخداري، "دراوة والتواصل الاجتماعي والثقافي بين المغرب والجزائر نهاية القرن 18 وبداية القرن 19م"، مجالات الحوار المغربي - استحضار لماض توأصلي عريق-، الجمعية المغربية للبحث التاريخي، وجدة، المغرب، 2015، ص 92.
- ³ أبو عبد الله محمد بن أحمد القيسي، أنيس الساري والسارب من أقطار المغرب إلى منتهى الآمال والمآرب سيد الأعاجم والأعارب، ط1، تحقيق وتقديم وتعليق: محمد الفاسي، وزارة الدولة المكلفة بالشؤون الثقافية والتعليم الأصلي في المغرب، فاس، 1968، ص 29.
- ⁴ عبد الرحمان المودن، البوادي المغربية قبل الاستعمار قبائل إيناون والمخزن بين القرن السادس عشر والتاسع عشر، ط1، منشورات كلية الآداب، الرباط، 1995، ص 118.

- ⁵ عبد المجيد القدوري، ابن أبي محلي الفقيه الثائر ورحلته الإصلييت الخريت، مطابع منشورات عكاظ، الرباط، 1991، ص 127.
- ⁶ محمد المنوني، من حديث الركب المغربي، مطبعة المخزن، تطوان، 1953، ص 07.
- ⁷ مصطفى الغاشي، الرحلة المغربية والشرق العثماني محاولة في بناء الصورة، ط1، دار الانتشار العربي، بيروت، 2015، ص 350.
- ⁸ محمد المنوني، المرجع السابق، ص 10.
- ⁹ أبو العباس أحمد بن خالد الناصري، الاستقصا في أخبار المغرب الأقصى، تحقيق: جعفر الناصري، محمد الناصري، دار الكتاب، الدار البيضاء، 1997، ج7، ص 43.
- ¹⁰ محمد المنوني، المرجع السابق، ص 11.
- ¹¹ نفسه، ص 12.
- ¹² عبد الرحمان المودن، المرجع السابق، ص 118.
- ¹³ يونان لبيب رزق، محمد مزين، تاريخ العلاقات المغربية المصرية منذ مطلع العصور الحديثة حتى عام 1912م، دار النشر المغربية، الدار البيضاء، 1982، ص 35.
- ¹⁴ عبد العزيز الخليلشي، زاوية تمجروت والمخزن (1642-1912م)، ضمن كتاب الرباطات والزوايا في تاريخ المغرب، ط1، منشورات كلية الآداب والعلوم الانسانية بالرباط، مطبعة النجاح الجديدة، الدار البيضاء، 1995، ص 135.
- ¹⁵ أبي سالم عبد الله بن محمد بن أبي بكر العياشي، رحلة العياشي الصغرى (تعداد المنازل الحجازية)، تحقيق ودراسة: عبد الله حمادي الإدريسي، ط1، دار كوكب العلوم، الجزائر، 2019، ص 25.
- ¹⁶ محمد المنوني، المرجع السابق، ص 33.
- ¹⁷ أبي زكرياء محمد صغيري الفيلالي، ركب الحجيج السجلماسي رمز حضاري وإشعاع ديني، ط1، دار الرشاد الحديثة، الدار البيضاء، 2022، ص ص 12-15.
- ¹⁸ محمد علي فهم بيومي، المغاربة في المدينة المنورة إبان القرن الثاني عشر الهجري الثامن عشر الميلادي، ط1، دار القاهرة، القاهرة، 2006، ص 28.

- ¹⁹ محمد المنوني، المرجع السابق، ص 36.
- ²⁰ نفسه، ص 39.
- ²¹ جلول بن قومار، "هاجس الأمن عند ركب الحجاج المغاربة من خلال الرحلات الحجية (17م-18م)"، مجلة الحوار المتوسطي، المجلد 08، العدد 02، ديسمبر 2017، ص 13.
- ²² محمد المنوني، المرجع السابق، ص 40.
- ²³ المهدي شدال، "مسلك الحجاج المغاربة أواخر القرن 11هـ/17م من خلال الرحلة الحجازية لأبي عبد الله محمد بن علي الرافعي التطواني، المعارج المرقية في الرحلة المشرقية"، مجلة مدارات تاريخية، المجلد 04، العدد 01، أبريل 2022، ص ص 13-22.
- ²⁴ محمد المنوني، المرجع السابق، ص 41.
- ²⁵ أبي سالم عبد الله بن محمد بن أبي بكر العياشي، المصدر السابق، ص 30.
- ²⁶ محمد برشان، "أثر ركب الحج في بناء حضارة المجتمع الصحراوي الجنوب الغربي الجزائري نموذجاً"، مجلة الخلدونية، العدد 06، جامعة تيارت، 2013، ص 195.
- ²⁷ مولاي بلحميسي، المرجع السابق، ص 25.
- ²⁸ أبي سالم عبد الله بن محمد بن أبي بكر العياشي، المصدر السابق، ص ص 67-79.
- ²⁹ سعاد آل سيد الشيخ، "طرق ومسالك أركاب الحج المغاربة بالجزائر العثمانية" دراسات تاريخية، المجلد 10، العدد 01، السنة 1443هـ/2022م، ص 224.
- ³⁰ عبد الله بن محمد العياشي، الرحلة العياشية 1661-1663م، تحقيق: سعيد الفاضلي، سليمان القرشي، ط1، دار السويدي، الإمارات العربية، 2006، ج 1، ص ص 76-127.
- ³¹ أبو عبد الله محمد بن أحمد القيسي، المصدر السابق، ص 31.
- ³² سعاد آل سيد الشيخ، المرجع السابق، ص 225.
- ³³ أرزقي شويتام، "العلاقات الثقافية الجزائرية المغربية"، مجلة الدراسات التاريخية، العدد 13، جامعة الجزائر 2، السنة 1433هـ/2011م، ص 82.
- ³⁴ ليلي غويني، التفاعل الثقافي بين الجزائر وبلدان المغرب العربي من خلال كتب الرحالة الجزائريين، شركة الأصالة للنشر، الجزائر، 2016، ص ص 59-60.

- ³⁵ مصطفى الغاشي، المرجع السابق، ص 350.
- ³⁶ محمد الخداري، المرجع السابق، ص 93.
- ³⁷ أبو العباس أحمد بن محمد بن ناصر الدرعي، الرحلة الناصرية (1709-1710م)، ط1، تحقيق: عبد الحفيظ ملوكي، دار السويدي، الإمارات العربية المتحدة، 2011، ص 731.
- ³⁸ نفسه، ص 732.
- ³⁹ نفسه، ص 733.
- ⁴⁰ محمد الخداري، المرجع السابق، ص 93.
- ⁴¹ أبو العباس أحمد بن محمد بن ناصر الدرعي، المصدر السابق، ص 719.
- ⁴² أبي سالم بن عبد الله بن محمد العياشي، اقتفاء الأثر بعد ذهاب أهل الأثر، تحقيق: نفيسة الذهبي، الرباط، 1996، ص 170.
- ⁴³ نفسه، ص ص 194-195.
- ⁴⁴ عمر بن قايّد، "منطقة الأغواط وجوارها من خلال رحلة أبي عبد الله محمد بن عبد السلام الناصري الدرعي قراءة اجتماعية ثقافية"، المجلة المغاربية للدراسات التاريخية، المجلد 09، العدد 01، جامعة سيدي بلعباس، جوان 2018، ص ص 215-216.
- ⁴⁵ صورية حصام، "دور إقليم توات في توطيد العلاقات الاقتصادية والثقافية بين إيالة الجزائر والمغرب في العصر الحديث"، مجلة عصور، المجلد 17، العدد 01، جامعة أحمد بن بلة وهران 1، سبتمبر 2018، ص 194.
- ⁴⁶ أبو العباس أحمد بن محمد بن ناصر الدرعي، المصدر السابق، ص 127.
- ⁴⁷ نفسه، ص 129.
- ⁴⁸ نفسه، ص ص 130-138.
- ⁴⁹ أحمد بن عبد العزيز بن الرشيد الهلالي السجلماسي، التوجه لبيت الله الحرام وزيارة قبره عليه الصلاة والسلام، رحلة أبي العباس الهلالي السجلماسي، دراسة وتحقيق: محمد بوزيان بنعلي، تقديم: أحمد بوحسن، مطبعة جسور، وجدة، 2012، ص ص 113-159.

⁵⁰ أبي عبد الله سيدي محمد بن القاسم القندوسي، شراب أهل الصفاء في الصلاة على النبي المصطفى، تحقيق: عبد الله حمادي، خونا أحمد محمود الجكني، دار الهدى، الجزائر، 2008، ص 70.

⁵¹ عمر بن قايد، المرجع السابق، ص 211.

⁵² أبو العباس أحمد بن محمد بن ناصر الدرعي، المصدر السابق، ص 126.

⁵³ نفسه، ص 131.

⁵⁴ عبد الله بن محمد العياشي، المصدر السابق، ج1، ص 116.

⁵⁵ نفسه، ص 117.

⁵⁶ نفسه، ص 108.

⁵⁷ نفسه، ص ص 121-122.

⁵⁸ أحمد بن الرشيد الهاللي السجلماسي، المصدر السابق ص ص 110-166.

⁵⁹ عمر بن قايد، المرجع السابق، ص 207.

⁶⁰ نفسه، ص 214.

⁶¹ أبو العباس أحمد بن محمد بن ناصر الدرعي، المصدر السابق، ص 135.

⁶² نفسه.

⁶³ أحمد بوسعيد، ركب الحج الجزائري خلال العهد العثماني (1518-1830م) دراسة تاريخية واجتماعية من خلال الرحلات الحجازية، أطروحة دكتوراه علوم في التاريخ الحديث والمعاصر، جامعة أحمد درارية، أدرار، الجزائر، 2017/2018، ص 248.

⁶⁴ صالح بوسليم، عمر بن قايد، "الأضرحة والمزارات في الجزائر العثمانية من خلال كتب الرحلات"، مجلة العلوم الإنسانية والاجتماعية، العدد 21، ديسمبر 2015، ص 271.

⁶⁵ نفسه، ص 272.

⁶⁶ أحمد بن عبد العزيز بن الرشيد الهاللي السجلماسي، المصدر السابق، ص 159.